

عبد الحليم منصوري  
قسم اللغة العربية و آدابها  
جامعة باجي مختار - عنابة

## النقد الأسطوري من التحليل النفسي إلى الدراسة المقارنة

أستلم في 20/02/02 قبل في 11/12/02

### 1 - توطئة:

شكلت الأسطورة في القرن العشرين ظاهرة قوية في الأدب العالمي الحديث، كما شهدت ساحة الدراسات النقدية المعاصرة اهتماما متزايدا بتوظيف آليات المنهج النقدي الأسطوري ( Mythocritique ) في مقارنة النصوص الإبداعية شعرا ونثرا، وإن تفاوتت قيمة هذه الدراسات في مدى تحكمها في تطبيق آليات هذا المنهج، فذلك يرجع أساسا إلى حداثة المنهج في حد ذاته واختلاف طرائق التوظيف الأسطوري في الأعمال الإبداعية، نظرا لاختلاف الأجناس الأدبية، ومدى ثقافة المبدع، وقدرته الفنية على الاستفادة من المصادر الأسطورية وبنائها بناء فنيا يعكس رؤيته الفكرية والفنية.

وإذا كانت الدراسات الغربية قد شقت طريقها إلى هذا المنهج، فإن الساحة النقدية العربية لا تزال تتلمس أهدابه بخطوات وثيدة؛ إذ لا يزال هذا الحقل المعرفي في الدراسات العربية في مرحلة البداية المتعثرة.

وقبل التفصيل في عرض المنهج الأسطوري، نريد الإشارة إلى أن هذا المنهج ليس منهجا بالمفهوم الأكاديمي المتعارف عليه، بل هو مجموعة خطوات إجرائية في مقارنة نصوص إبداعية وظفت الأساطير.

ويقوم المنهج النقدي الأسطوري على استقراء الظواهر الأسطورية داخل النصوص الإبداعية، ثم تتبع مصادر هذه الأساطير الموظفة، ثم يصنفها تصنيفا نوعيا، ثم يحدد طرائق التوظيف الأسطوري في النصوص الإبداعية موضوع الدراسة للوقوف على تجلياتها داخل العمل الأدبي، ومدى احتفاظها بخصائصها، كشخصية، أو حادثة، أو موتيفا أسطوريا من خلال احتفاظها بالحد الأدنى للخصائص الجوهرية ومدى تحولها داخل العمل الأدبي. ويعود هذا التحول إلى أمرين:

1 - قابلية الأسطورة ذاتها للتوظيف الأدبي، أي تميزها التاريخي والموضوعي عن جملة الأساطير، الذي يمنحها خاصيتي التشكيل والتحول لكي تصبح جزءاً بنوياً للعمل الأدبي نفسه، ويخدم هذا التميز الرؤى الفكرية والفلسفية والجمالية للمبدع.

2 - قدرة المبدع الفنية على التوظيف الأدبي للأسطورة، شخصية أو حادثة أو موتيفاً ؛ أي تحويل الأسطورة إلى وجود جمالي يخدم رؤى المبدع، من خلال جملة التحولات والتحويلات، وحتى التشوهات التي يحدثها المبدع على هذه الأسطورة أو تلك.

وإذا كان المنهج النقدي الأسطوري قد تبلور في الساحة الأدبية خاصة على يد بيار برونال ( P. Brunel ) بصفة خاصة، فإن الإرهاصات الأولى التي بشرت به تعود إلى أعمال العديد من الدارسين مثل يونغ (Jung)، ويولس (A. Jolles)، وفراي (N. Frye) وآخرين اشتغلوا بالنقد الأسطوري بوعي أو بدون وعي منهجي حقيقي، كما يقرّ فراي ذاته في قوله: « كانت أولى جهودي المستمرة في البحث محاولة لكتابة تعقيب موحد على كتب وليام بليك التنبئية. إنها قصائد أسطورية الشكل: وكان علي أن أتعلم شيئاً عن الأسطورة لكي أكتب عنها، وهكذا اكتشفت، بعد أن نشر الكتاب، أنني من مدرسة " النقد الأسطوري " التي لم أكن قد سمعت بها من قبل »<sup>(1)</sup>. وعليه، كان لزاماً علينا أن نعرف بالأعمال التي قام بها بعض الدارسين في مجال النقد الأسطوري، وكانت من محطاته البارزة.

#### أ - النقد الأسطوري والتحليل النفسي

تمت الإشارة - فيما سبق - إلى أن المبحث الأسطوري شكل تقاطعاً وحقولاً معرفية متعددة ومتشابكة ومتباينة، وأكثر هذه الحقول اهتماماً بالأسطورة كحقل لاستعراض معطيات منهجية ؛ أي أن كل علم حاول أن يطبق فرضياته على الأسطورة. وأكثر هذه العلوم التصاقاً بالأسطورة واهتماماً بها هو علم النفس التحليلي، الذي رأى في الأسطورة مجالا خصبا للتعبير عن المكبوتات والدوافع اللاشعورية، ومن ثم نظر إلى الأسطورة كرموز لحقائق نفسية تعبر عن قوى لا واعية معتملة في اللاشعور الإنساني . وركز " فرويد " (Sigmund Freud) مثلاً على تشابه الأسطورة والحلم ، حيث نجد الأحداث في الأسطورة - كما في الحلم - تقع حرة خارج قيود الزمان والمكان، وتغيب الرقابة العقلية الموجودة على بوابة اللاشعور، في الأسطورة والحلم<sup>(2)</sup>.

وإذا كان ما ذهب إليه فرويد يعكس اهتمامه بالأسطورة وتفسيرها من خلال ربطها بالأحلام، وبالتالي بالكبت اللاشعوري، فإن النقد الأسطوري لا يزال يدين كثيرا لكارل يونغ (Carl Jung) - تلميذ فرويد - الذي أولى اهتماما خاصا بالأسطورة، من خلال ربطها باللاشعور الجمعي، وليس بالكبت كما تصور فرويد؛ لأن يونغ يرى أن « العقل اللاواعي يقدر في بعض الأحيان أن يأخذ لنفسه من الذكاء والهدفية ما هو أرفع من البصيرة الفعلية الواعية... فإن كل الأحلام والأساطير ليست متماثلة. ويقصد يونغ أيضا أن وظيفة الأساطير والأحلام " الهادفة " ليست مجرد تطهير. بل وظيفتها إعطاء معرفة » (3).

فوظيفة الأحلام عند يونغ هي إعطاء معرفة لأنفسنا، لأنها ليست مجرد تطهير، وإنما هي تعبير ذو دلالة ومعنى. ومن هنا، فالعمل الأدبي عندما يستدعي الأسطورة، فلا بد أن تكون تلك الأسطورة ذات معنى ومغزى: وبذلك، يمنح الأديب عمله بعدا جماليا أعظم وأرقى.

واستطاع علم النفس - خاصة عن طريق يونغ - أن يتعمق في الأسطورة، وأن يفسر رموزها التي يستقر معظمها في اللاشعور الجمعي، وهذا ما جعل أحد الباحثين يقول: « علماء النفس يعتبرون الأساطير رموزا، وتعبيرات عن قوى وعواطف عنيفة يشعر بها الإنسان. هي رموز لحقائق نفسية خالدة. فكل من أوديبوس وشمشون ليست شخصيات تاريخية عاشت على الأرض ما قدر لها أن تعيش، بقدر ما هي رموز للرغبات والعواطف والأمال التي تصطرع في نفس الجنس الإنساني عامة » (4).

وإذا كانت الأساطير - من المنظور النفسي التحليلي - تعبيرا عن مشاعر اللاوعي الجمعي وأحلامه وآماله، وإذا كان الأدب صياغة جمالية لهذا اللاوعي، فإن الأدب والأسطورة يلتحمان أخذا وعطاءا للتعبير عن هذا اللاوعي.

وإذا كان بعض العلماء - مثل ليفي شتراوس Lévi Straus - يعتقدون أن للأسطورة منطقا يعكس منطق التفكير الذي أنتجها، فإن يونغ يرى في الأساطير تمثلا لنماذج أولية للتفكير (archetypes) تمكننا دراستها من معرفة البنية الفكرية لللاوعي الجمعي الذي تظهر بواسطة هذه الأساطير.

## ب - النقد الأسطوري عند " أندري يولس "

تتعلق رؤية العالم الهولندي الأصل "أندري يولس" (André Jolles) من رفضه لفكرتين كانتا سائدتين: تتعلق الأولى باعتبار الأسطورة متعالية عن كل خطاب (transcendantaliste) فيما تتعلق الثانية باعتبارها محايدة للخطاب

(immanentiste). هذا الرفض لهاتين الرؤيتين جعله يقترح رؤية ثالثة، تتمثل في أطروحة وسيطة تأخذ طابع « الشكل البسيط » (forme simple) الذي يسبق ظهوره الخطاب الشفوي، لكن يتم تحينه عن طريق النص الأدبي<sup>(5)</sup>.

وعلى ضوء هذا المفهوم، استطاع هذا العالم أن يرسى دعائم نظرية خاصة به، تنطلق في جوهرها من وظائف المجتمع؛ ذلك أن الخطاب - بالنسبة ليولس - يشبه العمل الاجتماعي الذي حدد له ثلاث وظائف: الفلاح، والحرفي، والكاهن، أي المزارع، والصانع، والمفسر. وتمثل هذه الوظائف الرباط الاجتماعي، الذي يربط مجموعة العمل: الفلاح ينتج ويزرع ويحرق ويلتقي مع الطبيعة ويتعامل معها، أما الحرفي فيصنع ويغير نظام الأشياء ونظامها الطبيعي، ثم يأتي دور الكاهن ليفسر ويسهل عمل المزارع والصانع، لكي يصبح العمل كاملاً وجاهزاً<sup>(6)</sup>.

وانطلاقاً من هذه الوظائف الثلاثة، استلهم "يولس" مستويات الخطاب:

- مستوى إنتاج الخطاب ذاته (ويقابل هذا المستوى وظيفة الزرع).
  - مستوى إرساء الشكل البسيط (ويقابل وظيفة الصناعة).
  - مستوى العمل الأدبي الذي يمنح الكمال النهائي (وظيفة التفسير).
- وينطلق "يولس" في إثبات صفة "الشكل البسيط من فكرة ثنائية التساؤل والإجابة جاعلاً كل الأشياء متصلة بهذه الثنائية، إذ يرى أن الإنسان « يسأل الكون وظواهره طالبا منها التعبير عن نفسها، فيتلقى إجابة سرعان ما تأخذ شكلاً لغوياً يتكون من خلاله العالم بظواهره انطلاقاً من مركزية التساؤل والإجابة، فهذا التعبير الكوني يتخذ شكلاً نسميه الأسطورة »<sup>(7)</sup>.

ومن ثمة، يؤكد "يولس" على أن الأسطورة تتكون من سؤال وجواب، فهي المكان الذي يتكون فيه الشيء انطلاقاً من تساؤل الإنسان. وهذا الطرح ذاته ذهبت إليه الباحثة نبيلة إبراهيم حين رأت أن « التأمل ينجم عنه التعجب، كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل. فإذا تساءل الإنسان طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله، حتى إذا استطاع أن يجيب عن سؤاله، قرّت نفسه... فإذا تمثل الكون للإنسان بهذه الوسيلة عن طريق السؤال والجواب، فإنه يتكون بذلك شكل نسميه الأسطورة الكونية »<sup>(8)</sup>.

فهي ترى أن منشأ الأسطورة هو علاقة مساءلة بين الإنسان والكون، وأن الأسطورة ما هي - في الحقيقة - سوى محاولة لصياغة إجابية لتلك المسئلة صياغة لغوية. ويبقى أصل الأسطورة عند يولس هو سؤال طرحه الإنسان على الكون، ولذا انطلق في رؤيته من أسطورة التكوين؛ لأن هذا النوع من الأساطير جاء إلى الوجود بعد تساؤلات الإنسان البدائي.

## ج - النقد الأسطوري عند "نورثروب فراي"

أشرنا فيما سبق إلى أن المنهج النقدي الأسطوري كانت له إرهابات قبل "برونال" لكنها كانت تفتقد إلى الرؤية النقدية التي يحددها الوعي المنهجي. وعلى الرغم من ذلك، لا يزال النقد الأسطوري يقرّ للعالم الكندي "نورثروب فراي" (Northrop Frye) بكثير من الفضل على هذا المنهج؛ بفضل أعماله ودراساته تبلور هذا المنهج. وقد اعتبر أن ما نسميه النقد الأسطوري في الأدب ليس دراسة لبعض المظاهر أو الأجناس الأدبية، ولا هو منهجية نقدية، بل هو دراسة لمبادئ البنية في الأدب ذاته، أي دراسة أنواعه ونماذجه وصوره، وبالتالي علاقة الأدب بما هو خارج عنه<sup>(9)</sup>.

ويرى "فراي" أننا لا نستطيع أن نبدأ بالنقد قبل الفهم الدقيق للقصة التي قرأناها، أو سمعناها، وبالتالي علينا أن نكشف ونتبين الموضوع محور القصة، ثم نحاول تركيب عناصرها وتجميعها. كما يؤكد على وجود نوعين من الاستجابة للعمل الأدبي، خاصة عندما نكون أمام قصة:

النوع الأول هو الاستجابة غير النقدية، أو ما قبل النقدية؛ لأننا لا نستطيع أن نبدأ بالنقد قبل المطالعة الكلية للكتاب، وبهذا نكون قد عرفنا ما يرمي إليه المؤلف.

النوع الثاني هو الاستجابة إلى الموضوع، أي الاستجابة التي تأتي بعد انتهائنا من المطالعة وفهمنا للموضوع وللمغزى، وبعد أن أصبحنا ننظر إلى العمل بوعي وفهم، نستطيع في هذا الحال أن نبدأ النقد<sup>(10)</sup>.

ويرى هذا الباحث أن النقد الأسطوري يستند أساساً إلى فكرة الانزياح (displacement)؛ لأن الأدب بالنسبة إليه هو «أسطورة منزاحة عن الأسطورة الأولية التي هي الأصل، وهي البنية وكل صورة في الأدب مهما تراءت لنا جديدة، لا تعدو كونها تكراراً لصورة مركزية مع بعض الانزياح، ومع مطابقة كاملة أحياناً أخرى»<sup>(11)</sup>.

ومهما كانت هذه المطابقة، فإننا نرى أن الأدب يستمد مادته من الأسطورة. وإذا كانت الأسطورة ليست هي الأدب، فإنها تعدّ مادة يشكلها الأدب. ويؤكد فراي أننا لا بد أن نكون على وعي كامل بموضوع الدراسة قبل مباشرة النقد الأسطوري.

## د - النقد الأسطوري عند " بيار برونال "

أرسى العالم الفرنسي " بيار برونال " (Pierre Brunel) دعائم نظريته النقدية الأسطورية استنادا إلى أعمال " يولس "، معتبرا أن الأسطورة إنما تخلق من الألغاز وبواسطة الطابع التساولي. فإذا كان الإنسان أمام ظاهرة غير مفهومة وغير مفسرة من قبل أي نظرية فيجب البحث عن أسباب أخرى دون الاستعانة بالعقل أو بالخبرة العلمية. كما يرى " برونال " أننا نستطيع الانطلاق من السؤال، كما نستطيع الانطلاق من الإجابة ؛ لأن هناك نصوصا مقدسة تفسر لنا كل ما لم يفهمه عقلنا. ففي كل الأحوال يطرح الإنسان أسئلة أمام العالم الموجود حوله، ويتلقى إجابة، وهكذا يخلق السبب. ويؤكد من جهة أخرى أننا جميعا نتساءل، ونبقى معلقين أمام السؤال الرباعي الذي طرحه " فولتير ":

من أنا ؟ أين أنا ؟ أين أنا ذاهب ؟ ومن أين أتيت ؟

ويعدّ " برونال " العالم الذي قام بخطوات إجرائية وعملية تسهل الطريق أمام الباحث في الأساطير، حيث استطاع أن يكشف عن قوانين أو معايير ثلاثة ( ويرفض في الواقع مصطلح "قوانين" ؛ لأنّ للأدب مقاومة حيال أية قوانين ) يستطيع بواسطتها دارس الأسطورة الأدبية أن يقوم بخطوات منهجية ليقارن النص الموجود أمامه بالأسطورة الأصلية، وأطلق على هذه المعايير أسماء: التجلي والمطاوعة والإشعاع. فإذا وجدنا هذه المعايير الأسطورية في النص، فهذا يعني أن هناك أحداثا جديدة، وحوادث خاصة لا يمكن ضبطها داخل قوانين عامة (12). وقد دعم " هنري باجو " (D. H. Pageaux) هذه النظرية، إذ يؤكد أن النص الشعري يكون كله أسطوري ( إشعاع )، أو يجمع الأساطير على شكل حكايات متتابعة ( مطاوعة )، أو نجد حضورا للأساطير مترسبة في أعماق النص يمكن استحضارها من خلال بعض الإشارات التاريخية أو بعض سمات الأبطال، أو تنشظى في سيل من الرموز (تجلي) (13).

وحسب " برونال"، فإننا عرفنا الأساطير بفضل النصوص الأسطورية التي تعتبر قبل نصية أو خارج نصية ؛ لأن العلاقة الموجودة بينهما ليست في الكتابة، وإنما تظهر مع حياة البشر الذين يروونها ويمارسونها وفق اعتقاداتهم الدينية. كما يرفض فكرة النظر إلى العناصر الأسطورية في النص كأنها ليست ذات قيمة أو معنى، بل بالعكس فإنه يجعل منها المنطلق الأساس لإقامة أي فرضية نقدية أسطورية، كما يجعل من العنصر الأسطوري داخل النص مدخلا لكل تحليل نقدي لذلك النص؛ لأن العنصر الأسطوري يمتلك دائما إشعاعا يعم النص مهما كان وجوده باهتا (14).

وتبقى - في رأينا - لمقاربة " برونال " النقدية الأسطورية اليد الطولى في أية دراسة أو تحليل لنص أدبي يحمل في طياته عناصر أسطورية، مهما كان حضورها داخل النص الأدبي، إذ يرى " باجو " أن « القوانين الثلاثة التي وضعها " برونال " ( التجلي، والمطاوعة، والإشعاع ) تعدّ المبادئ الأساسية التي تقود نحو قراءة موضوعاتية، وبالخصوص المطاوعة وعلاقتها بالتحليل البنوي » (15).  
وتقوم مقاربة " برونال " النقدية الأسطورية على ثلاث خطوات في التحليل النقدي للنصوص ذات الحضور الأسطوري:

## 1 - التجلي

وهو ترجمة لمصطلح (émergence) الذي استعمله " برونال "، ونعني به بروز العنصر الأسطوري أو انبثاقه داخل النص الأدبي. والتجلي ليس هو الظهور؛ لأن الظهور هو خاصية الشيء غير الموجود أساساً، أما التجلي فهو يميز الخصائص الجوهرية أو العرضية للعنصر الأسطوري؛ وهذا يعني أن حضور العنصر يكون تاماً - أي مفصلاً - أو جزئياً؛ أي حضور ما يدل عليه من خصائصه، على أن يحافظ العنصر الأسطوري - مهما تجرأ - على الحد الأدنى من الخصائص المميزة، وهي ما تسمى بمقاومة العنصر الأسطوري لجملة التحويرات والتعديلات والتشوهات، وإلا فقد ذلك العنصر هويته.

## 2 - المطاوعة

وهي ترجمة لما أطلق عليه " برونال " مصطلح (flexibilité)، وهي طاقة كامنة في العنصر الأسطوري تمنحه القدرة على التشكل وفق رؤية المبدع، فهي مجموع اتساعات الذاتية لعنصر أسطوري ما للاستجابة لتحويرات المبدع من خلال توظيفه الواعي لذلك العنصر. وتتخذ المطاوعة أشكالاً عديدة، منها:  
- بتر العنصر الأسطوري عن سياقه الأصلي وإدماجه في سياق جديد، من خلال التصرف في أحد عناصره، أو تبديلها بما يخدم رؤية المبدع الفكرية والجمالية.  
- التصرف في أحد ملامح العنصر الأسطوري بالحذف أو الزيادة، وكلما كان التصرف كبيراً، كلما ازدادت مطاوعة ذلك العنصر.  
- تشويه العنصر الأسطوري، أي قلب ذلك العنصر من خلال التوظيف العكسي كتشويه الأبطال الأسطوريين. هذا النوع من المطاوعة يعكس قراءة المبدع لذلك العنصر الأسطوري وتفسيراً له. وكلما كانت الفترة الزمنية طويلة بين المبدع

والعنصر الأسطوري، كلما كان التصرف أفضل، والتعامل غير مقيد أو مشروط بزوال الاعتبارات السياسية والدينية والإيديولوجية.

### 3 - الإشعاع

وهي ترجمة لمصطلح (Irradiation) " لبرونال "، ومفاده أن العنصر الأسطوري يمتلك خصائص ذاتية يستغلها المبدع كي تشع على مجمل العمل الأدبي، حينما يلقي ذلك العنصر بضلاله على مجموع المساحة القرآنية حينما يشكل الخلفية القرآنية لذلك العمل الأدبي، ويشع العنصر الأسطوري، انطلاقاً من موقعه النصي كأن يكون عنواناً، أو فاتحة، أو استهلالاً أو إهداء أو فقرة على الغلاف النهائي، أو لازمة تتكرر داخل النص، أو جملة شديدة التكرار أو مجرد إشارة تحيل على عنصر أسطوري ؛ ذلك أن العنصر الأسطوري قد لا يكون تجليه واضحاً في النص.

### - الهوامش

- <sup>1</sup> - نور ترروب فراي، الأسطورة والرمز، ترجمة جبرا إبراهيم جبر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1980، ص 09.
- <sup>2</sup> - سيقموند فرويد: تفسير الأحلام، ترجمة جورج طرابيشي، مكتبة التحليل النفسي، القاهرة، ص 16.
- <sup>3</sup> - ويليام ك. ويمزات وكلينت بروكس، النقد الأدبي، ج 4، ترجمة حسام الخطيب ومحي الدين صبحي، مطبعة جامعة دمشق، 1977، ص 216.
- <sup>4</sup> - محمد عصمت حمدي، الكاتب العربي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة 1968، ص 59.
- <sup>5</sup> Pierre Brunel, Mythocritique , p. 13
- <sup>6</sup> André Jolles , formes simples , trad A. M . Buguet , ed p. 81 du Seuil Ibid.
- <sup>7</sup> Paris 1972 , p. 18 - 20 .
- <sup>8</sup> - نبيلة إبراهيم ، أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، ص 17 .
- <sup>9</sup> Northrop Frye , littérature et mythe , p. 502
- <sup>10</sup> - نور ترروب فراي ، الأسطورة والرمز ، ص 13 - 14 .

<sup>11</sup> - نورثروب فراي، نظرية الأساطير في النقد الأدبي، ترجمة حنا عبود ، دار المعارف سوريا، ط 1 1987 ، ص 17 .

<sup>12</sup> Pierre Brunel, Mythocritique, p.72

<sup>13</sup> D.H. Pageaux, la littérature générale et comparée, ed Armand colin Paris, p. 105.

<sup>14</sup> Pierre Brunel, Mythocritique , p. 81 - 82 .

<sup>15</sup> D.H. Pageaux, la littérature générale et comparée, p. 88 - 89.